دلالة كلمة البيت في الاستعمال القرآني

د. عبد الحفيظ بورديم

جامعة تلمسان

ملخص:

هذا البحث يستجيب للقراءة الدلالية قصد إعادة إقامة العلاقة بين الدال اللفظي والمدلول الذهني لكلمة (البيت) وانزياحها من الاستعمال العرفي إلى الاستعمال القرآني لها. والقصد المرجو من ذلك هو تبيان التنوع الدلالي لتنوع السياق، وبه يمكن تحرير الدلالة من الجاهز الذي قد يحمل على الاستنباط الخاطئ. وإذا استطاعت فكرة هذا البحث أن تحقق غايتها فهي ستكون انتصارا لضرورة المعرفة باللسان العربي من أجل استنباط الدلالات من القرآن وعليها يكون مدار الفهم الصحيح والاجتماع القويم.

Summary:

This research responds to semantic reading that it is intended to re-establish the relationship between the verbal signifier and the mental signified for the word (al-beit) and its shift from: its customary use to its Quranic use. The main purpose of that is to show the semantic diversity of the context, thus, its significance can be freed from the readiness, which may carry on the wrong inference. If the idea of this research has been able to achieve its purpose, it will be a victory for the need for knowledge of the Arabic tongue in order to devise connotations of the Koran and it will be over the correct understanding and meeting the True.

الإشكالية

إن حمل دلالة (آل البيت) على فهم جاهز أوقع المسلمين قديما وحديثا في تصورات كانت سببا في انزلاقات، ولأن كلمة (البيت) -مثل غيرها- تدور في الاستعمال بين حقيقة عرفية وأخرى شرعية فإنه صار من الواجب متابعة السياق القرآني وتوظيفه للكلمة عسى أن تهتدي إلى أصولها وتحولاتها. فكيف نستعيد فهمها؟ وبأي معنى نسترد حقيقتها؟.

الدلالة العرفية

القصد من الدلالة العرفية هو الرجوع إلى المدلول الاجتماعي المتفق عليه والذي يحقق إمكان التداول والبلاغ، فربّ كلمة مركّبة من الحروف نفسها يختلف مدلولها من بيئة اجتماعية إلى بيئة غيرها.

وتدور الدلالة العرفية للبيت على معنى "أوى الانسان بالليل" ويقع "على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر"¹ كما يقول الراغب الأصفهاني. وجاء منه في كلام العرب ما يحقق ذلك من مثل قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى ** لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

وتكني العرب عن المرأة فتقول البيت كقول أعرابي:

ألا يا بيت بالعلياء بيت ** ولولا حب أهلك ما أتيت²

وجاء منه في القرآن الكريم ما يثبته

1- كقوله تعالى ((وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا))³. جرت الآية في سياق الحديث عن مكانة عاد الذين عظمت قوتهم فبنوا مساكنهم التي تويهم في الجبال.

2- وكقوله تعالى ((وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ))⁴ فدلت كلمة البيوت على ما تأوي إليه النحل من قفير حيث تكون وحيث تتوالد وحيث تصنع غذاءها من عسل.

3- وكقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِمَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا))⁵ فنسب البيوت إلى الزوجات لأنها موضع سترها ومستقر زوجيتها.

4- وكقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ))⁶ وما جاء من آيات لتشريع جواز الأكل في بيوت الأرحام الواردة في سورة النور. ودلت كلها على معنى المأوى الذي يتخذه الانسان مستقرا له ومنزلا ينزل إليه.

الدلالة القرآنية

القصد من الدلالة القرآنية هو المدلول الجديد الذي قد يعطيه القرآن الكريم للكلمة المستعملة في أعراف العرب، ومن ثمّ يستأنس بهم دون الوقوف عندهم، وذلك هو الذي يجعل مدلول الكلمة القرآنية جديدا.

وفي القرآن الكريم استعمالات لكلمة (البيت) تخرج عن الدلالة العرفية لتصبح دلالة قرآنية منها:

1- البيت هو الكعبة؛ ومصادقه ما جاء دعاء من إبراهيم عليه السلام ((ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم))⁷ فخرجت نسبة البيت إلى ما دلت عليه كاف الخطاب وهو (الله) سبحانه. وظاهر اللفظ يجعل البيت لله دون غيره، وفي ذلك نقل للدلالة العرفية من بعدها الحسي إلى بعد معنوي روعي، إذ بيت الله هو الكعبة التي يأوي إليها المسلمون لا للمبيت فيها بل لتأكيد إيمانهم. وتوجد آيات أخر تعضدها تتعدّد فيها الصفات للموصوف الواحد، فهو مرة ((البيت المحرم)) ومرة ((البيت العتيق)) ومرة ((البيت الحرام)) ومرة ((أول بيت)).

ونال إبراهيم عليه السلام شرف رفع قواعده وإبرازها بعد انمحاء وبنائها بعد اندراس، وخلّد القرآن الكريم فعله فذكره ((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم))⁸ فاستحقا بذلك أن تكون لهما المزية العظمى بما قاما به من تطهير للبيت لمن يأتيه راكعا وطائفا وسائلا المثابة والأمن.

2- وبما أن الكعبة هي أول مسجد بني، فإن المساجد التي يبنونها المسلمون لإقامة شعائر الصلاة وإعلان عقيدة التوحيد وتتخذ من الكعبة قبلة لها فتسمى هي أيضا بيوت، ومصادقها قوله تعالى ((فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ))⁹ والبيوت المقصودة هي المساجد.

3- أهل البيت هم أهل إبراهيم من نسل إسحاق عليهما السلام؛ ومصادقه ما جاء خطابا من الملائكة لزوج إبراهيم عليه السلام في مشهد أخذ بالألباب يوم ضحكت فبشرتها الملائكة بإسحاق ومن ورائه يعقوب عليهما السلام، فعجبت كيف تلد وقد صارت عجوزا عقيما ((قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد))¹⁰. ويحملنا ظاهر الآية أن أهل البيت هم ذرية إبراهيم الذين من نسل إسحاق. ويلحق بها قوله تعالى ((وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشروا المؤمنين))¹¹.

4- أهل البيت هم أهل محمد صلى الله عليه وسلم، ومصداقه قوله تعالى مخاطباً أمهات المؤمنين أزواج محمد صلى الله عليه وسلم ((يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ أَتَقِيْنَهُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وعاتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا))¹². وبيّن من سياق الآية أنّ الخطاب موجّه لنساء الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تردّد بين الأمر بالوقر وبالصلاة وبالزكاة وبالطاعة، والنهي عن التبرج، والإخبار بإذهاب الرجس، والتعيين بأنّ المخاطبين هنّ الزوجات أهل البيت. هذه هي الدلالات الأربع (الكعبة والمسجد وأهل إبراهيم وأهل محمد) التي يمكن توزيعها على الاستعمال في السياق القرآني. مع ضرورة الإشارة إلى أنّ الوصف بالأهل كان في خطاب موجّه إلى الزوجة، وكأنّها هي التي تحدّد الدلالة باعتبارها ستكون منجبة للأبناء والبنات.

النظم الأسلوبى

إنّ روعة الاعجاز التعبيري في القرآن الكريم جاءت بكلمة البيت في صيغ عديدة:

1- مفردة (بيت) حين يقصد بها الدلالات القرآنية الثلاثة، وجمعا (بيوتا) حين تكون دالّة على ماجرى العرف على استعماله. ويمكن تأويل ذلك بأنّ الجمع فيه معنى الكثرة، أما الافراد ففيه معنى الوحدة والتوحيد.

2- معرفة ارتبطت بالافراد في كلّ سياق الدلالات القرآنية، وتنوع بين التعريف الذاتي (البيت) وبيان التعريف الاضافي (بيتك)، ونكرة ارتبط بالجمع. ويمكن تأويل ذلك بأنّ القصد من البيت أن يكون معروفا كما أنّ الايمان بالله وبالأنبياء معرفة بدهية، بينما يؤول التنكير الى الجمع لأنّ الكثرة مانعة من المعرفة.

3- أضيف إلى أهل البيت فقيل (أهل البيت) في موضعين أحدهما ارتبط بإبراهيم عليه السلام والثاني ارتبط بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد يكون القصد من ذلك أنّ البيت هي النبوة، فيمكن استبداله بها فيقال (أهل النبي). وهما هنا اثنان أبو الأنبياء وخاتم الأنبياء. وهو ما يفسّر صيغة الصلاة الإبراهيمية " اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا

محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى لى سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد" ¹³.

التبيين النبوي

يقصد بالتبيين هو أن يقوم النبي صلى الله عليه وسلم بتوضيح دلالة الكلمة القرآنية للناس، وهو من القواعد المقررة في الأصول المعرفية الإسلامية أن الحديث النبوي هو تبيين للقرآن الكريم، فيفضل ما يكون مجملاً أو يخص ما يكون عاماً أو يطلق ما يكون مقيداً، وتلك هي وظيفة الرسالة ((وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۖ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) ¹⁴. وقد وردت الأمر بإقامة الصلاة مجملاً وبيّنت كيفيتها السنة العملية.

وقد وردت أحاديث نبوية تعلقت بتعيين المراد من دلالة (أهل البيت) الواردة في سورة الأحزاب، نستند إلى اثنين منها:

1- عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً"، فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: "إنك إلى خير" ¹⁵.

2- عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ¹⁶.

التأويل المذهبي

كان من المفروض أن التبيين النبوي يكفي في تحديد الدلالة، ولكن الاختلاف المذهبي أخضع الكلمة القرآنية والإشارة النبوية كليهما إلى تأويل زاد من حدة التباين بين الدال والمدلول، وأوقع مزيداً من الاختلاف الحاصل منذ ألف وأربع مائة سنة على الأقل، من ذلك:

1- التأويل الشيعي: يحمل حديث الكساء على التخصيص الدلالي لعبارة (أهل البيت) ودليلهم أن الخمسة النبي وعلي والزهاء والحسن والحسين هم المخصوصون بها ¹⁷، ويتأولونه بأن إرادة إذهب الرجس هي إرادة تكوينية وليست تشريعية.

2- التأويل السني: يحمل حديث الكساء على اللاحق الدلالي لعبارة أهل البيت، ودليلهم أن السياق كان خطاباً موجّهاً لأزواج النبي فكأن هنّ المراد، وأمّا الكساء " فمحمّله أن النبي صلى الله عليه وسلم ألحق أهل الكساء بحكم هذه الآية وجعلهم أهل بيته كما ألحق المدينة بمكة في حكم الحرمة بقوله إن إبراهيم حرم مكة واني أحرم ما بين لابتيها. وتأول البيت على معنياه الحقيقي والمجازي يصدق ببيت النسب كما يقولون : فيهم البيت والعدد ، ويكون هذا من حمل القرآن على جميع محامله غير المتعارضة¹⁸ .

3- وبالترجيح بينهما قد تكون القرينة اللسانية أقرب إلى استنباط أهل السنة لأنّ فيها انبناء على دلالة السياق ودفعاً لاحتمال التعارض بين النصوص وهو المستحيل.

الخلاصات

تصل هذه القراءة الدلالية إلى تأكيد ضرورة العلم باللسان العربي لفهم تحولات الكلمة بين الاستعمال العرفي والاستعمال السياقي - وقد مثل له هنا بالقرآن الكريم- مع الإشارة إلى أن الاستعمالي القرآني نفسه يعطي للكلمة دلالات قد تتعدّد دلالاتها من سياق لآخر كما تمتّ تجليته في كلمة البيت فهي دالّة على مأوى الانسان ومأوى النحل ودالّة على الكعبة ودالّة على المساجد ودالّة بيوت النبوة، وعلى الرغم من التبيين النبوي إلا أنّ احتمال التأويل يبقى قائماً كما في دلالة أهل البيت بين الشيعة والسنة.

هوامش :

- 1- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن باب (ب ا ت) دار المعرفة لبنان.
 - 2- ابن منظور: لسان العرب باب (ب ا ت) دار صادر بيروت 2003.
 - 3- سورة الحجر/الآية 68.
 - 4- سورة النحل 68.
 - 5- سورة الطلاق 1.
 - 6- سورة النور/27.
 - 7- سورة إبراهيم 37.
 - 8- سورة البقرة 127.
 - 9- سورة النور/36.
 - 10- سورة هود/ 73.
 - 11- سورة يونس/87.
 - 12- سورة الأحزاب 33.
 - 13- صحيح البخاري - كتاب الصلاة على النبي - رقمه 5996.
- وينظر في ابن حجر العسقلاني شرح صحيح البخاري دار الريان للتراث 1986.

-
- 14- سورة النحل / 9.
15- سنن الترمذي - كتاب التفسير- رقمه 3205.
16- صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رقمه 2424.
17- ينظر عبد الله نعمت ، روح التشيع ، دار الفكر اللبناني بيروت دت ص 424.
18- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ، دار سحنون ج 5 ص 15.